مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 01 / 16 /01/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

العقلانية التواصلية والسياسة عند يورغن هبرماس

Communicative rationality and the politics of Jürgen Habermas

قداوي محمد kadaoui Mohmmed * kadawi29@gmail.com	فلسفة	كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران2.
إشراف: أد. دراس شهرزاد Pr : Darass Chahrazad derras.oran2@gmail.com	فلسفة	كلية العلوم الاجتماعية، قسم الفلسفة، جامعة وهران2.

DOI : 10.46315/1714-010-001-009

تاريخ الارسال: 26/ 12/ 2019 تاريخ القبول: 10/ 10/ 2020 تاريخ النشر: 2021/01/16

ملخص باللغة العربية

هذا البحث هو محاولة تقف على المنعطف الذي أحدثه (يورغن هبرماس) في المسار الفكري للنظرية النقدية الاجتماعية ،وهو تحديد قدرة العقل على تحقيق الاندماج الاجتماعي ،وحتى لا تتأخر شروطه النظرية عن الواقع ربط (هبرماس) مفهومه عن الفعل التواصلي باعتباره فعل العقل مع السياسة لأنها ميدانه ،من خلال صياغته الإجرائية للديمقراطية.

كلمات مفتاحية: العقل الأداتي؛ الفعل التواصلي؛ الديمقراطية الجذرية؛ الديمقراطية التداولية.

Abstract (English):

This research is an attempt to uncover the juncture that (Jürgen Habermas) created in the intellectual path and so that of social critical theory, which is determining the ability of the mind to achieve social integration, its theoretical conditions are not delayed from reality. , By his procedural formulation of democracy.

Keywords: instrumental reason, communicative action, radical democracy, deliberative democracy.

***- مقدمة:**

ليس من السهل علينا أن نحدد المعاني النهائية للوجود الإنساني، حتى وإن اشتغلت الفلسفة على ذلك بكل ما تملك، لهذا لا نرى فيها معنى المصداقية ان هي اقتصرت على جعل الإنسان موضوعا لتفكيرها النظري، بل ولو جعلت من نتائجها على اتصال وثيق بحياته ومصالحه وتطلعاته. وإنما المصداقية تكمن في تغيير الفلسفة لإمكانياتها حتى تستمر في عملية البحث عن الحقيقة ؟. فالذي يقال عن الفلسفة اليوم، يقال عن الإنسان الغربي، نتعرف عليه من خلالها ونتعرف عليها من خلاله، فلا نجد شيئا غير رؤية مسلم بها؛ تقبلنا ككائنات عاقلة يتمظهر العقل داخل معارفنا، كما يتمظهر داخل ممارساتنا وأفعالنا المتميّزة تعكس وجودنا السياسي والاجتماعي.

رؤية مستمرة وفي استمرارها انعكاس دائم لمجال مبدأ العقل الغربي، ما دامت قد أسست إلى الدفع النقدي « المنبعث من أزمات العقل المتجددة في ذاته من خلال ملفوظاته» كما يعبر(هايدغر مارتن)(بن تومي،أ وآخ. ، 2012،210)، ولعل الأوضاع

* - الباحث المُرسل: kadawi29@gmail.com

البائسة التي ترجمت تناقضات العقل الأنواري أو التي ترجمت غياب معنى المشروعية من السياسة، بسبب تحريف أسسها المعرفية التي تسيطر على الطبيعة لدعم الحرية والمساواة، إلى مقصد الهيمنة أو السيطرة الاجتماعية ودعم الظلم واللامساواة أين استقل العقل كآلة عبر الصيرورة التاريخية وأصبح مكونا مركزيا في التصنيع الاقتصادي، لخدمة المصالح الرأسمالية وتعزيز قواها، هي من تطلبت رؤية جديدة؛ تجمع الفلسفة كمنبع لنقد مع العلوم الاجتماعية، قصد تطابق العقل مع الواقع.

انها النظرية الاجتماعية التي فرضها الوعي التاريخي من طرف الرواد الأوائل لـ (مدرسة فرانكفورت)، تفسر تناقضات الواقع بتناقضات الوعي وتستخدم كوسيلة للتحريض على التغيير الاجتماعي والسياسي، عملا بوصية (كارل ماركس) (1883-1818م): « إن الفلاسفة قد فسروا العالم بطريقة مختلفة، والنقطة المهمة هي تغييره » (Rush, F ,2004,09) .

اعتبرت هذه الوصيةبمثابة المرجعية الفكرية لدى الجيل الأول من المدرسة في نقد العقل كـ(هوركهايمر)(1973-1985م) و(ادورنو) (1903-1966م)، وفي نفس الوقت حتمية فرضت مراجعة النظرية الماركسية وتعديلها ، لان الأداتية التي بشر بها العقل الأنواري إذا وضعت أمام أمر الواقع الاجتماعي، سوف نجدها سببا يضعف عملية استبدال الجذري للنظام.

وفيما يعتقد (هبرماس يورغن)(1929م) أن الوصف الفكري للجيل الأول يعد خطأ في الخلط بين(النظام وعقلانية العقل) وهو يوازي خلطا آخر(عدم القرن بين النظام وعالم الحياة). لذا سعى هذا الفيلسوف بعد تأثره بالمنعطف اللغوي لاسيما التحول الذي طرأ على مفهوم (التواصل) ، إلى تعديل مهام العقلانية في دعم الفعل التواصلي أو تحقيق التفاهم الاجتماعي، معتمدا في ذلك على دور الفلسفة بعد غيابه في الثقافة البورجوازية، وهو دور النقد الذي يساعد العلوم بمعارفها التصدي للهيمنة الاداتية، وفهم المصالح التي تكون سببها. إذ وجدناه يطرح تساؤلا دقيقا عن هذا الدور في قوله (هبرماس،ي ،2002،222).» أليست الفلسفة بالأحرى قوة إنتاجية«

وحتى يكون للعقلانية التواصلية خلفيتها السليمة، تقدم (هبرماس) بإجراء منهجي عن الديمقراطية قد برر نزوعه العملي، وهي مساهمة استدعت منه مراعاة طبيعة المجتمع الغربي المعلمن، للحفاظ على القوة السياسية للشعب مع ضمان سلامة دولة القانون. هذا وإنجاح الفعل التواصلي لا بد له من سياسة باعتبارها ميدانا له، تصبح معها إرادات الشعب موضوع النقاش الحر والمتداول، دون أدنى طموح للهيمنة والإطاحة بالسلطات الممؤسسة. لهذا سوف يكون إدراج إشكالية البحث ضمن إطار التحول الذي طرأ على سيرورة النظرية النقدية الاجتماعية، من تشخيص الأداتية إلى التواصل كأسلوب في العقلنة الاجتماعية في: هل يكفي البديل التواصلي أن يكون مفتاحا للتحرر من السيطرة الأداتية والضامن الوحيد لتطلعات الناس حول وجودهم السياسي؟

استخدمنا لمعالجة هذه الإشكالية وللوصول إلى نتائج الدراسة، طريقة تجمع بين عناصر البحث وفرضياته في:

-اعتبار الاداتية من تناقضات العقل الانواري أو انحرافا منه عن الوجهة الصحيحة، لهذا اشرنا إلى النقد الذي قدمه(هوركهايمر) و(أدورنو).

-لا تختزل العقلانية في الاداتية، وإنما للعقل إمكانياته في تحقيق الاندماج الاجتماعي، لذلك اشرنا إلى مفهوم الفعل التواصلي وكيف ان الفلسفة بنضالها داخل العلوم، تخدم المصلحة الجماعية عندما تدعم ذلك الفعل وتطلب هذا الأمر مقاربة بين(هوركهايمر) و(هبرماس).

-اعتبار السياسة ميدانا للفعل التواصلي، لهذا اشرنا إلى الوجهة الإجرائية لـ(هبرماس) عن مفهومه للديمقراطية. أي إظهار الوجه الذي تلعبه العقلانية التواصلية في الربط بين المستوى النظري مع المستوى المؤسساتي للسلوك السياسي.

2-(هوركهايمر) و(أدورنو):نقد الأداتية وتعديل النظرية الماركسية.

لا يمكن أن نحكم على التاريخ بالسكون والثبات، وإلا كان التفكير منقطعا بمدى توفر حجج وبراهين تؤكد هذا الحكم.بحيث تترافق دائما وأبدا مع التفكير الممنهج والمستمر إلى جانب القدرة الاستيعابية تأسيس النظرية، لهذا وعلى ضوء التقدم التاريخي كما يدعي(كارل ماركس)، ليس هناك تفكير بحت أو نظرية لا نستطيع إلغائها وغير مختلقة عن العصر.

صادف هذا الإدعاء رفضا قاطعا من وعي تاريخي صحيح فرضه التأمل النافذ في العمق الاجتماعي، وكما فرضه الالتزام بالتقليد الفلسفي للنقد، فالقراءة الماركسية على ضوء (فلسفة التاريخ) للاجتماع والسياسة قد اعتمدت على الاقتصاد، لكن الوضع الاقتصادي المزري والمنحط في مجرى البؤس والخاضع للهيمنة البورجوازية، إنما هو محصلة العقل الاداتي المسؤول عن (التشيوء) الشامل.

وهذا الوعي قد استفرد به الرواد الأوائل للمدرسة،حيث تطلب منهم تأسيس«نظرية نقدية للوهم والايدولوجيا»(بونبر،ر، 1986،241)تمتاز بالقوة وشمولية. يقول(جورج لوكاتش)(1885-1971):« إن كل إنسان يعيش في الرأسمالية فإن التشيوء هو الواقعة المباشرة الضرورية، ولا يمكن التخلي عليها إلا في الاندفاع المتواصل والمتجدد بدون انقطاع لتفجير عمليةالبنية المشيئة للوجود»(لوكاتش،ج،دت،172).

أمام هذا الاعتبار نجد (هوركهايمر)وزميله (أدورنو) يقدمان رؤية تعديلية للنظرية الماركسية، بل ونقدها لعدم استيعابها معنى التحرر بدليل أنها ربطته بالثورة المتوخاة. إذ اعتبر (ماركس) أن تحرير القوى الإنتاجية من قبل الرأسمالية مقدمة موضوعية لقهرها ولكن القوى التقنية للإنتاج بدت لهما متزاوجة مع علاقات الإنتاج وفاقدة كليا لقدرتها على إبراز النظام.

مثل كتاب-جدل التنوير-الذي اشترك في تأليفه (هوركهايمر) و(أدورنو) نقدا لاذعا للعقل التنويري الأوروبي، بسبب انحرافه عن الوجهة الصحيحة، لأن الاستلاب والتشيوء هي مقولاته. لهذا نجدهما يشخصان (الأداتية) على أنها نتاج التقنية المختزلة لمشروع التنوير المسيطر على مفصليات الحياة في المجتمع الرأسمالي الصناعي، بالقول: «لقد ألزمت وكالات إنتاج الجمهور والحضارة التي أوجدها الإنسان، بسلوكيات مبرمجة كما لو كانت هذه السلوكيات وحدها الطبيعة المناسبة والعقلانية. والإنسان لا يتحدد إلا بوصفه شيئا، أو عنصرا إحصائيا ينجح أويفشل»(المحمداوي،ع،وآخ.،2012،31،30).

3-(يورغن هبرماس) والعقلانية التواصلية:

الجيل الثاني بدأ اقترانا مع (هبرماس) والذي دشن نظريته النقدية على إعادة قراءته للماركسية وبناءها من جديد، ونقده لرواد (مدرسة فرانكفورت) نفسهم. لاسيما في اختزالهم موضوع العقلانية بالأداتية، وبالفعل أفكارهم رغم صرامتها، إلا أنها بقيت في مستوى التجريد وانهزمت في تحقيق المصالحة الفعلية القائمة أساسا على البحث في الآثار الدالة على العقلنة الاجتماعية ولاسيما التواصلية. يقول (الباحث):« مما يسمح لنا بالقول بأن نظرية الفعل التواصلي الهبر ماسية، لم تكن مجرد حدث عابر في تاريخ النظرية النقدية لمدرسة فرانكفورت، بقدر ما مثلت منعطفا جديدا في المسار الفلسفي لهذه النظرية، وخاصة عندما استطاع أن يبلور جملة من المفاهيم والمقولات التي غابت عن أنظار مفكري الجيل الأول، وفي مقدمتها مفهوم العقل أو الفعل التواصلي»(بومنير،ك،وآخ.،2012،279).

تعد مرجعية (هبر ماس) الفلسفية دليلا على التحول الذي طرأ على(مفهوم التواصل)، إذ لم يعد هذا الأخير مقتصرا على تبليغ أو إيصال التقنيات والمعلومات. بل أصبح يشكل نظرية علمية وفلسفية تتمتع باستقلالية قائمة بذاتها، إنها مرجعية انطلقت من الهم الذي غاب على(هوركهايمر) و(أدورنو)ألا وهو:كيف يمكن أن نحقق الاندماج الاجتماعي؟ وذلك يعود إلى

استفادتها من المنعطف اللغوي كما يقول (كارل أتوا أبل): « بهذا المعنى نكون نحن الاثنين ورثة التغيير الالسني في الفلسفة المعاصرة»(آبل،ك،2005،23).

إن هذه الاستفادة سوف تحمل (هبر ماس) على تجاوز«الأطروحات التقليدية في العلوم الاجتماعية المتعلقة بالوعي والفعل»(بغورة،أ،2005،23). فمن جهة الوعي والعلاقات القائمة عليه، يقترح (هبرماس) تحويل علم الاجتماع إلى فرع من فروع علوم الاتصال، لأن (الفعل التواصلي) يعيد ترتيب العالم المعيش القائم على العلاقات البينية للأفراد، وهنا يصبح «التواصل ضرورة عليمة لكل تفكير اجتماعي.(بغورة،أ،2005،23)» ، وأما من جهة ثانية ينتقد النظرية الوظيفية وشبيهاتها لأنها لم تقدم حسب رأيه رؤية واضحة عن (التواصل) وظلت سجينة التصور الفلسفي لمفهوم (الفعل الغائي) عند (أرسطو).

يمكن للمرء أن يلتمس مفهوم (العقلانية التواصلية) عند (هبرماس) من خلال ما سبق ذكره في النقاط الآتية:

ا-الفعل التواصلي:

لا يمكن أن نفصل بين أعمال الواقع الاجتماعي وأعمال العقل، والدليل على ذلك مدى مساهمة (العقل الأداتي) الذي أنتجته (الحداثة الغربية) في جعل أواصر التواصل والتفاعل بين البشر في واقعهم الاجتماعي هزيلة، حيث غرق الإنسان المعاصر أكثر فأكثر في الوحدانية والفردانية، لذلك سعى (هبرماس) إلى إعادة تأسيس عقل جديد يمتاز بطابع الانفتاح والمرونة، ينظم العلاقة بين مقولاته الذاتية التي تنتج المعرفة والواقع الاجتماعي المنتجة فيه تلك المعرفة.

يهدف التنظيم وفق هذا العقل إلى التفاهم، لهذا نجد (هبرماس) يحدد (الفعل التواصلي) بالنسبة للفاعلين المنتمين إلى (العملية التواصلية) على أنه فعل مرتبط بهذا الهدف، والذي لا يتحقق إلا بواسطة اللغة، لأن الغرض من استعمال اللغة من وجهة نظره هو تحقيق التفاعل الاجتماعي بين المتخاطبين، إذن«فنظرية الفاعلية التواصلية عند (هبر ماس) تؤكد على التواصل اللساني وعلى التفاعل الاجتماعي أيضا» (آفية، ن،1998،196،186)،كما تؤكد على قدرتها في جمع شتات الحقول المعرفية بعد أن كانت«دراستها تنطلق في مقاربتها للتواصل من زاوية نظرها الخاصة كدراسة ديسوسير التي مثلت الموقف اللساني ودراسة ديل هايمز التي مثلت الموقف الأجتماعي» (مفتاح،م،2019،55).

إن مجموع الأفراد الذين يشكلون المجتمع، سوف يقع الفهم الصحيح لعلاقاتهم الاجتماعية، إذا اقترن بالتفاهم أو إذا بحث في الوسائل التي تحققه دونما قسر أو إكراه كيفما كان نوعهما. وقد يفشل في بلوغه إذا كانت تلك الوسائل لصالح أحد الأطراف للتأثير على الطرف الآخر، ومن هنا يتضح أننا ملزمون على إنجاح الفعل التواصلي أو تحقيق الإجماع العقلاني، إلا وفق شروط تتجاوز خطر فشل التفاهم بتجاوز خطر سوء الفهم، وهي شروط الاستعمال اللغوي أو شروط الحجاج والمناظرة.

ب -دور الفلسفة في فعل التواصل:

ليس من شأن الفلسفة أن تتأمل في معرفة المطلق، لأن الفلسفة المطلقة هي التي شكلت عائقا أمام تطور العقلانية. وليس من شأنها أيضا أن تكون علوما حقة مثلما يدعي الوضعيون، فالتأمل في المطلق هو ضرب من الميتافيزيقا يتجاوز الواقع الاجتماعي ويتفاوت مع لحظته التاريخية. وأن تكون الفلسفة علما يعني سقوط الإنسان في الهيمنة التقنية.

إن الفلسفة ضرورة أنطولوجية للتحرر، لهذا نجد (هبرماس) يراعي هذه الضرورة، وهو يحاول توسيع هامش العقلانية التواصلية بربط الفلسفة مع مسؤولية التصدي لكل هيمنة تقنية تعمل على تشييء الإنسان وتحويله إلى سلعة، هذا والربط بالطبع يتماشى مع الأفق السياسي للنقد، أو اعتبار الفلسفة هي المستقبل الذي يظل رهينا بالممارسة السياسية، يقول

(هبرماس) في تصوره الدقيق عن الفلسفة:« النضال داخل العلوم لمواجهة الجزيئية والاستقرائية، الكشف عن شمولية الفكر، نقد فلسفة الذات، تجاوز فلسفة الأصل وتشجيع هوية المجتمع وأفراده»(آفية،ن، 1998، 54).

يتبين أن (نظرية الفعل التواصلي) إنبنت على موقف جديد من الفلسفة، بعد أن غاب دورها مع الثقافة البورجوازية في المجتمع الغربي، وأين حلّ محلّها التصور العلمي-التقني، يقول: «منذ أن أصبح التطور العلمي-التقني المحرك الحقيق لتوسع القوى الإنتاجية فرضت التصورات العلموية بأكثر قوة مثلا في نجاح الوضعية، لم تمارس الوضعية التقليدية حتى القرن العشرين تأثيرا هاما على الفلسفة الجامعية فحسب لأنها تطبع أيضا ماركسية الأمم الثانية»(هبرماس،ي،2002، 225).

وفي هذا السياق قام (هبرماس) بما أسماه إعادة بناء النقدي للمادية التاريخية، مستلهما في ذلك التراث النقدي لـ(مدرسة فرانكفورت)مع جيلها الأول، بحيث أكد أن الماركسية لم تستنفذ كل طاقتها بوصفها فلسفة تحررية، يقول:« إن المادية التاريخية كان بوسعها اعتمادا على منهج صارم حل كل المسائل التي كانت آلية حتى ذلك الوقت إلى التفكير الفلسفي»(هبرماس،ي،2002، 225)، وذلك لإحلال العلم في مكان الفلسفة مع العلموية، التي ترغب في التسلط السياسي، فالعقل التقني-الأداتي لا ينفك عن هذا التسلط، يقول:« الفعل العقلاني الهدف هو طبقا لبنيته ممارسة الضبط. لذلك فإن عقلنة الحياة حسب معيار هذه العقلانية تتساوى بمعناها مع ما سمته سيطرة لا تصبح معروفة بوصفها سيطرة سياسية؛إذ لا يتخلى العقل التقني لمنظومة اجتماعية للفعل العقلاني الهدف عن مضمونه السياسي» (هبرماس،ي،2003، 44).

وتعميق فهمنا للدور الفلسفي الذي أراده (هبرماس) أن يكون ومدى تموضعه داخل السلوك النابع من الحداثة التي أقيم صرحها على أسس العقل الأنواري. يقوم على العودة إلى مواضيع النقاش الفلسفي في حد ذاته بأسلوب المقاربة بينه وبين(هوركهايمر)، لأن ذلك سوف يوضح لنا صورة النظرية النقدية التي تخدم الفعل التواصلي.

تتوحد الفلسفة في نظر(هوركهايمر)مع العلوم الاجتماعية حتى تكون منبعا للتساؤلات التي تبحثها هذه العلوم.كإطار لا يغيب فيه الواقع الاجتماعي عن النظر النقدي من أجل تغييره، وعلى هذا الأساس سوف ينحصر اهتمام(هوركهايمر)على سؤال المعرفة لا من حيث أصلها أو مصدرها، وسؤال الوجود لا من حيث علته القصوى حتى لا يقع في الميتافيزيقا، بل تبعا للواقع أو تبعا للعلاقات الاجتماعية التي تتضمن نشاطاتهم وحاجاتهم، من منطلق أن السياق التاريخي للعقلانية هو سياق إيديولوجي استند إلى يقين معرفي محدد، لهذا تتحدد مهمة الفلسفة في نظره، في الكشف عن المصلحة الاجتماعية في كل نظرية، وذلك يقاس بمصلحة الأغلبية الاجتماعية. وهذا بالطبع دور يخدم تطابق العقل مع الواقع بواسطة ربط النظرية بالممارسة.

أي أن الفلسفة مضطرة للكشف عن أي يقين معرفي وأي تطرف إيديولوجي، يخدم مصالح فئة صغيرة، وينشر القهر على الأغلبية الساحقة.فهذا بدوره يعد تناقضا مع ماهية الإنسان من حيث كونه يمثل تلك القدرات اللامحدودة التي تنتج الوجود الحقيقي. فالأغلبية الساحقة المقهورة، هي بذلك مظلومة تبعا لما تمليه هذه الماهية، وبالتالي تبعا لقدرتها في تنظيم العلاقات الإنتاجية. أما بالنسبة لـ(هبرماس) مقارنة بـ(هوركهايمر)، فإن الفلسفة مضطرة ووفقا لمبدأ (البينذاتية– Intersubjectivité)الذي تعد اللغة أحد مكوناته الأساسية، تعديل مهام العقلانية من أجل دعم الفعل التواصلي«وتحريره وعدم إبقائه مشوها» (هبرماس،ي،2001، 292،291). وذلك بالطبع يعتمد على عملية الفهم لعلاقة المعرفة بالمصالح التي تنشئها.

يقسم (هبرماس) علاقة المعرفة بالمصلحة إلى ثلاث أقسام؛تبعا لفكرته عن العوالم الثلاث ألا وهي:

_العالم الموضوعي-الطبيعي:ينتج فيه الفعل الأداتي، والذي أصبح معه«هم العقل الوحيد هو السيطرة على الطبيعة»(مهيبل، ع،300،2005).أي أن هذا العالم هو عالم المعرفة التقنية التي من مصلحة الذات بواسطتها السيطرة عليه.

_العالم الاجتماعي:ينتج فيه فعلان عقلانيان، أحدهما الفعل الاستراتيجي؛وهو فعل نابع من ذات بهدف السيطرة وقمع الآخرين بغية التفوق عليهم؛عبر الأنساق وداخل(الحيز الاجتماعي). وسرعان ما تهيمن المعرفة التقنية على هذا الحيز بسبب الذات التي تريد تحقيق ذلك الهدف، يقول (هبرماس):« تخرق الايدولوجيا الجديدة المصلحة التي ترتبط بالحيز الاجتماعي. هذه المصلحة التي تمتد إلى الحفاظ على التشارك الذاتي للتفاهم، وهذا يؤدي إلى اختفاء المصلحة العملية خلف توسع قوة التحكم التقنية» (مهيبل،ع،83،2005).

والثاني هو الفعل التواصلي، أو ما يتعلق بالمشاركة البينذاتية في نقاش-تداولي، يهدف إلى فهم السلوكيات المحصلة بين الأفراد، ولكن سوف يكون هذا الفعل قابلا للتشويه وغير صحيح، مع تجاوز الفعل الأداتي لموضوع الطبيعة نحو السيطرة على إرادة الناس، لأنه يستحيل بغيابها التواصل.

_العالم الذاتي:ينتج فيه فعل التأمل أو التحرر.وهذا العالم بالطبع يعد بمثابة المكان أو المجال الذي يتسع لدور الفلسفة الذي يشجع على المعرفة التأملية، وحتى إذا كان لكل عالم من العوالم السابقة الذكر معرفة ومصلحة خاصة به، معايير معينة وحقائق، إلا أن الفلسفة بهذا الدور سوف تربط بينها، لكي يتماهى فعل التأمل داخل الأفعال الأخرى المنتجة في كل عالم ضمنيا، كما تتماهى هذه الأفعال فيه انعكاسا.

ينقسم الفعل التأملي إلى قسمين:النظري والذاتي، ويقصد بالنظري البحث في شروط تحقق المعارف ونقدها، وكشف زيفها. والتأمل الذاتي ينعكس على الذات ليحولها إلى موضوع لذاتها، ليكشف فيها مواطن الأدلجة والتشويه واللاشعور المسيطر عليها، ومهمة هذه الفاعلية من خلال النقد الكشف عن الهيمنة بجميع وجوهها لدعم التواصل من أجل غاية ألا وهي الفهم وتحويل الفهم إلى وسيلة لتحقيق الإجماع، عبر النقاش التداولي بين المتحاورين.

يطلب الإجماع العقلاني المحقق بالفهم عبر النقاش التداولي بين المتحاورين حلا لتحقيق القيمة الكلية للمبادئ والمعايير والاختيارات الإنسانية، لذا نجد(هبر ماس)يعود إلى الحل الأخلاقي،أو كما يسميه بـ(إتيقا النقاش)، والتي تعني في أبسط تعريفاتها أن «العقل بنية منطقية تتيح الاعتماد على البرهان كضرورة لأي تأسيس أو تعقيد لما يختاره الإنسان من نظم» (مصدق،ح،14،2005).

يتجاوز (هبرماس) مكامن القصور في الأخلاق التي حددها (كانط)، ليعوضها بما هو قائم على النموذج التداولي المستند إلى الحوار والحجاج. فالأخلاق ليست في رأيه موضوعا للتنظيم نابع من الذات على نحو ما أقر به (كانط) أو حتى التقليد الفلسفي بصفة عامة، بل هي منهج أو إجراء يسمح بتحديد القيمة من المعايير والمبادئ العادلة لزاوية نظر الأخلاقية من الذوات المتفاعلة والمتحاورة فيما بينها.

4 -السياسة كميدان للفعل التواصلي:

اهتم (يورغن هبر ماس) بالسياسة كونها تمثل أحد ميادين الفلسفة العملية، وهذا إلى جانب ثقافته النقدية الشاسعة التي مكنته من الانخراط الشخصي فيها، إذ يمكن للقارئ أن يتعرف في هذا المقام على «موقفه السياسي الشجاع من سياسة الولايات المتحدة الأمريكية في حرب الخليج عام2001، أو طريقتها التي وصفها بالإرهابية عقب وقوع أحداث 11سبتمبر على برجي التجارة»(بورادوري،ج،17،2003).

وبالرغم من هذا الاهتمام الذي يتضمن ملازمة الواقع السياسي المعاش، إلا أن البعض من القراء والنقاد؛يرون في تفكيره تفكيرا فاشلا.لأن (هابرماس) وقع به خارج ما هو عملي، مادام قد ربط (الفعل السياسي المباشر) بالشروط النظرية (الترستندنتالية) للفعل التواصلي، إلا أنه في رأينا الواقع السياسي المعاش، والذي يمكن أن نعتبره موضوع الفلسفة العملية، هو الذي وجّه تفكير(هبر ماس)النظري وليس العكس.

تضافرت مجهودات (هبرماس) لتأسيس فلسفة سياسية قائمة بذاتها، وذلك بالاعتماد على الشرعية المعيارية التي تميز الفكر القاري في أوروبا وكذا الواقعية التي تميز الفكر الأنجلوساكسوني. وهذا الاعتماد بالطبع لا لصالح التواصل كمفهوم نظري وفقط، وإنما أيضا لصالح التواصل السياسي كمفهوم عملي، فالسياسية عنده محددة بالفلسفة العملية وكميدان للفعل .من هنا يظهر النزوع العملي لدى(هبرماس) مادام التواصل يعد مرجعيته في التفكير ما بعد الميتافيزيقي والذي يحيل اللغة وسيلة لهذه المرجعية من حيث كونها محدّد لمعيار الصلاحية بإمكانية التحقق مثلما تحدّثت بذلك الفلسفة البراغماتية.

وبما أن اهتمامنا منصب على التفكير السياسي القائم على نظرية الفعل التواصلي، فإن ذلك سوق يكلفنا الوقوف على جميع كتاباته، وكما أن هذا التكليف يحتاج منا إلى مجلدات إذا ما أردنا الكشف عن البعد السياسي فيها، حتى تلك الكتابات التي تعكس مثل هذا التفكير بطريقة غير مباشرة.لذا سوف نقتصر الطريق على تحديد مفهوم(الديمقراطية الجذرية وسياسة التداول)انطلاقا من مؤلفه الهام(الديمقراطية بين الحقائق والمعايير).

(هبرماس) الفيلسوف، سوف تكون له وجهة نظر إجرائية عن الديمقراطية، تتأقلم مع مسألة(الفهم) و(الفعل التواصلي)، كما تتأقلم مع طبيعة المجتمع الغربي المدمقرط والمعلمن، إذ نجده يشير في كتابه(الديمقراطية الحقائق والمعايير)أنه«في ظل سياسة(معلمنة) بالكامل لا يعود من الممكن الحصول أو الحفاظ على دولة القانون دون ديمقراطية جذرية»(Habermas,J,13,1978)، وعلى هذه الأخيرة أن تلعب دور الرابط بين المجتمع المدني والفضاء السياسي العام.

يتضح أن(هبرماس)، حتى يتمكن من صياغة الديمقراطية الجذرية على خلفية نظريته في الفعل التواصلي. كان عليه أن يحافظ على مفهومها الكلاسيكي حول(سيادة الشعب)، إذ أن الخلفية السليمة للتواصل لا تكون إلا بالنقاش الحر والتداول الذي يؤديه مجموعة من الممثلين الاجتماعيين المستقلين، أو بمعنى آخر إرادات الشعب وآرائهم هي موضوع النقاش والتداول لهؤلاء الممثلين. وبهذا المعنى سوف يكون لهم حق الضغط الاجتماعي على دولة القانون.

أي أن العالم الاجتماعي، سوف يصبح عالما كما يريد(هبرماس)أن يقول متضمنا لحيز اجتماعي جديد للسياسة، غير مؤطر من مؤسسات الدولة أو الأحزاب أو النقابات فقط وإنما تابع لقوة السياسة الشعبية المتحورة من كل الإكراهات. لكن إذا اعتبرنا الفعل السياسي الشعبي فعلا متحررا، فإن هذا الاعتبار يحتاج إلى الإمكانية والفعالية، لذا يقترح (هبرماس)من أجل ذلك وجوب توفر المجتمع المدني المعلمن

(هبرماس)من أجل ذلك وجوب توفر المجتمع المدني المعلمن والمدمقرط، يقول«فقط مع توفر هذين الشرطين(العلمانية والديمقراطية ركنا الدولة القانون) يمكن للرأي الشعبي أن يخلق هيئات تشريعية وقانونية غير رسمية تنتج عن المداولات الشعبية وتتولد من التفاعل بين الإرادة المؤسسة في دولة القانون والفضاء العام الذي تستنفره الثقافة» (Habermas,J,326,1978). ولكن كيف يمكن للتواصل أن يخدم التشريع الذاتي للشعب حتى يفرض نفسه على السلطات المؤسسة في دولة القانون؟ وإذا فرض نفسه، ألا يغيب معنى التواصل المرجو؟ وتحلُّ محله الهيمنة والسيطرة؟

يجيب (هبرماس) على هذا السؤال؛بما يعبر عن هوية المجتمع في كليته.لكن بواسطة الفضاء العام السياسي، وهو الفضاء الذي تتشكل فيه نتائج المناقشة المفروضة من طرف المواطنين عبر سيرورة المداولة المؤسسة، دون أدنى طموح للهيمنة

على(دولة القانون)أو أخذ مكانها. بل الاكتفاء بممارسة ضغط شعبي على السياسة التي تتبعها الحكومة بوسيلة السلطة الإدارية، يقول:« تتمثل وظيفة تدفق التواصلات بين تشكيل(الرأي العام) والقرارات المؤسسة الناتجة عن استطلاع الرأي والقرارات التشريعية في ضمان ترجمة التأثير الناتج عن الوسائل الصحافية وعن السلطة التي تولدها وسائل التواصل بوسائل التشريع إلى سلطة يمكن للإدارة استخدامها» (Habermas,J , 1978,323,324)

أما بالنسبة لمفهوم (الديمقراطية الإجرائية التداولية) ،الذي اقترحه(هابرماس)، سوف نجد ما يحدد شرحه من خلال كتابيه (الاندماج الجمهوري) و(الديمقراطية بين الحقائق والمعايير).بحيث يجب علينا أن نفهم مسبقا، أن (هبرماس)إذا كانت فلسفته تخدم الغرض التواصلي، فإن ما يقترحه عن الديمقراطية لا يخرج عن نطاق هذا الغرض، وبالتالي يلعب «دور الوسيط والمصالح بين الممارسة والنظرية للديمقراطيات » (Habermas,J , 1978,311,954) .

إن الديمقراطية الإجرائية التداولية، هي محاولة فلسفية تميز بين النموذجين (الجمهوري) و(الليبرالي) دون إقصائهما، بل إعادة البناء وترتيب للمكان المناسب لهما،يقول:« إن نظرية المناقشة التي تضيف سيرورة الديمقراطية تضمينات معيارية أقوى مما يطرحه النموذج الليبرالي، لكن أضعف مما يطرحه النموذج الجمهوري، تستعير مرة أخرى عناصر من هذا وذاك فعادة ترتيبها بطريقة جديدة.فهي بتوافقها مع النزعة الجمهورية، تمنح مكانا مركزيا لسيرورة تشكل الرأي والإرادة السياسية، لكن دون اخذ دستور الدولة كظاهرة ثانوية؛بل على العكس فهي تصوغ مبادئ دولة القانون كجواب عن السؤال حول معرفة كيفية مأسسة أشكال التواصل المشترط التي يتطلبها التشكل الديمقراطي للرأي والإرادة (Habermas,J , » 1978,323,324) .

أراد (هبرماس) عبر الديمقراطية الإجرائية والديمقراطية الجذرية، تعضيد السلطة الاجتماعية والمجتمع المدني والفضاء العام. وفي ذلك تبعا لرأينا يشجع على تجنب مأزق انسداد آفاق الأفكار السياسية التي تتعامل مع المجتمع لكلية اجتماعية، أو حتى تلك الأفكار التي تعتبرها مجرد نسق بسيط من المعايير المد سترة.ولكن في رأينا فإنه وفي حرصه على عدم جعل الرأي العام شموليا، فإنه ينتهي إليه باقتراحه مبدأ (البينذاتية) حيث يشيد كلية اجتماعية أو شمولية عملاقة.

5-مناقشة ختامية

اتضح من خلال ماسبق ذكره، ان يورغن هبرماس قد تمكن من اعطاء رؤية فلسفية منحت للنظرية النقدية الاجتماعية توجها معياريا جديدا ، وذلك بتحريرها من التسفير الوظفي الاقتصادي الذي اختزل العقل والعقلانية في الادتية المسيطرة على مفصليات الحياة في المجتمع الرأسمالي ، كما اعتقد بذلك الجيل الاول لمدرسة فرانكفورت ، في مقابل ضرورة تعديل بمهام العقلانية ، وهي مهام تدعم الفعل التواصلي، لهذا يمكن ان ندرج ضمن هذا السياق :

- العقل التواصلي قائم على فهم التجارب الانسانية على أنها ظواهر لغوية، فهو يوفر شروط الفهم والتفاهم اللغوي بين الناس، وهي نفسها الشروط الاخلاقية للتواصل أو الاندماج الاجتماعي .

- للفلسفة دورها النقدي ومسؤوليتها في دعم شروط التواصل .

- يعتبر التواصل فعل العقل والسياسة ميدانه العملي، فهو النموذج الإجبابي للديمقراطية، لأنه يخدم سيادة الشعب وإراداته في تشريعه الذاتي، وبه يفرض نفس على السلطات المؤسسة في دولة القانون .

ورغم كل ذلك، سوف تلقى هذه الرؤية صعوبة تعترض طريقها، وإن كان مضمونها ردم الهوة الموجودة بين النظرية والممارسة ، سواء بعدم إختزال العقل في الاداة أو بإسقاط مفهوم الفعل التواصلي لدوافع العمل السياسي التى تستخدمها فلسفة الوعي اللبرالية والجمهورية ، بالقياس الى إشكالية الثقافة السياسية . فـ(هبرماس) عندما احال اللغة وسيلة لتفاهم الشعب

وفرض سيادته، قد وقع في شروط أخلاقية لذلك التفاهم ذات إجراء كوني ثابت، في الوقت نفسه تكون ثقافة ذلك الشعب أو غيره مستمرة بإستمرار الحياة، وهذ بالفعل ماجعل (سيلا بن حبيب) تجادل الحمولة الدلالية الكانطية في فلسفته كما لو ان الشروط الاخلاقية للفعل التواصلي « بالنسبة للديمقراطية هي شرط قطعي »(عزيز،أ،351،2012).

اننا من حيث الواقع، في وضعية البحث عن كونية لتواصل الاجتماعي، مادمنا تحت رحمة نظام ديمقراطي نمثل الشعب المشارك في النقاش، ولا يمكن أن تكون سلوكياتنا سوى سلوكيات أخلاقية من الناحية الثقافية . لكن عندما نثير التساؤل عن سبب حتمية صرعاتنا برغم من تلك الوضعية التى نحن فيها، فسوف نجد بمرعاة المخزون اللاشعوري لنا، أن ذلك يعود « الى الانزلاق من كونية اللاتناقض (الحجة العقلانية) الى مايشكل تناقضا ذاتيا (الحجة المتعالية) » (عزيز،أ،2012،351).

فإذا قال المعيار الاتي افعل كذا دون أن تتسبب في معاناة ونحن مصابون بالسادية أو المازوشية ، فأن ذلك سوف يفتح فرصة تأويل يخدمنا أكثر مما يخدم الآخر، لأننا سوف نعتدي عليه ونلحق الأذى به، وبالتالي سوف ننحرف على المبدأ الاخلاقي للفعل التواصلي، وهذ المثال يؤكد الصعوبة التي تعترض الرؤية الهبرماسية، لأنها وقعت في الصوغ الصوري الشكلاني الكانطي، فالثقافة السياسية كسلوك أخلاقي، هي حالة مفتوحة على المستقبل، وأما النظرية ذات الاجراء الكوني المغلقة لها، ليست مطلوبة بل هي أكثر جوهرية من ماهو مطلوب الاعتراف به أو قبوله.

وفي الاخير، وبعد هذه المراجعة النقدية، يمكن القول أن سيرورة النظرية الاجتماعية قد تضمنت تعريفات إجرائية للعقلانية، وهذا بالفعل ما حدث مع (هبرماس) الذي أخرج تعرف العقلانية من مجرد كونها اداة للسيطرة، الى كونها محدد لشروط التواصل الاجتماعي، لكن تبقى نظرة تنقصها معايير أخلاقية متناسبة مع الثقافة المتغيرة والمستمرة في السياسة العالمية.

6-المصادروالمراجع

-الكتاب

- هبر ماس ، يورغن ، (2002). ما بعد ماركس ، ترجمة محمد ميلاد ، حسن صقر ،ط1،لبنان، دار الحوار السورية .

- هبر ماس، يورغن،(2001).المعرفة والمصلحة، ترجمة: حسن صقر،مراجعة إبراهيم الحيدري،ط1،ألمانيا،منشورات الجمل .

- هبر ماس ، يورغن ، (2003). العلم والتقنية كاديولوجيا، ترجمة: حسن صقر،ط1،ألمانيا،منشورات الجمل.

Habermas, J,(1978). Droit et démocratie entre faits et normes, Traduction : rainer rochlitz et Christian-Bouchind homme,Paris : gallimard.

-آفية،محمد ،نور الدين، (1991).الحداثة والتواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة،ط2، المغرب ،إفريقيا الشرق.

- آبل،كارل أوتوا،(2005).التفكير مع هابر ماس ضد هابرماس، منشورات الاختلاف،ط1 ، الجزائر، لبنان،المركز الثقافي العربي.

-بن تومي، اليمين والمحمداوي، علي كبود وبومنير، كمال،(2012). مدرسة فراكنفورت النقدية:جدل التحرير والتواصل والاعتراف،ط1، الجزائر،ابن نديم للنشر والتوزيع.

- بغورة،الزواوي،(2005).الفلسفة واللغة:نقد المنعطف اللغوي في الفلسفة المعاصرة ،ط1، بيروت،لبنان، دار الطليعة.

- بونبر،روديجر، (1986).الفلسفة الألمانية الحديثة،ترجمة : فؤاد كامل ، مراجعة وتقديم : عبد الأمير الأعسم ،د (ط) ، بغداد،دار الشؤون الثقافية .

- بورادووري،جيوفانا،(2013).الفلسفة في زمن الإرهاب،حوارات مع يورغن هابر ماس وجاك دريدا، ترجمة : خلدون النبواني،د(ط)، الدوحة، المركز العربي للأبحاث والدراسات السياسات .

- كانط،ايمانويل ،(2005).تأملات في التربية:ماهي الأنوار، ما التوجه في التفكير،تعريب وتعليق:محمود بن جماعة،ط1،تونس،دار محمد للنشر.

- لوكا تش،جورج،د(ت).التاريخ والوعي الطبقي، ترجمة:حنا الشاعر، د(ط)،بيروت.

- Rush, F,(2004).the Cambridge companion to critical theory, university of Notre dame university press

- المجلات

- مفتاح معروف،(2019). التواصل بين الموقف اللساني والموقف الاجتماعي. مجلة دراسات إنسانية واجتماعية، ج وهران02 ، العدد 10.